المقامة والأنساق الثقافية قراءة في قراءة "عبد الفتاح كيليطو"

Al maqama and the cultural formats, a look a Abdelfettah Kilito's view.

سوهيلة بن عتسو*

د. فريدة مولى♣

تاريخ الإرسال:2021/01/15	تاريخ القبول: 2021/07/01	تاريخ النشر: 2021/12/20

الملخص:

استثار التراث السردي العربي القديم، العديد من المقاربات النقدية المعاصرة التي سعت إلى تحقيق فهم جديدٍ وخاص للنص العربي الكلاسيكي، باعتباره نصًا ثقافيا يحمل أبعادا نسقية تشكل تصورا عاما للتاريخ والثقافة والمجتمع، من هذه المقاربات قراءة "عبد الفتاح كيليطو" للأدب العربي الكلاسيكي بصفة عامة، وبشكل خاص للمقامات التي انفردت بحصة الأسد من مشروعه النقدي الذي اتخذ آليات منهجية وأدوات إجرائية جديدة في التعامل مع هذا النص، ذلك ما كشف عن جوانب مميزة في المقامة، جعلتها تنتقل من غياهب الغرابة إلى رحاب الألفة، وذلك بالحفر في الأنساق الثقافية المضمرة في ثناياها، اعتمادا على القراءة الثقافية وما تتيحها من آليات وأدوات إجرائية.

المؤلف المرسل: بن عتسو سوهيلة benatsousouhila16@gmail.com

* جامعة عبد الرحمان ميرة – بجاية – قسم اللغة والأدب العربي، مخبر التأويل وتحليل الخطاب souhilabenatsou16@gmail.com.

♣ جامعة عبد الرحمان ميرة – بجاية- قسم اللغة والأدب العربي،مخبرالتأويل وتحليل الخطاب Fmoulla@yahoo.fr.

الكلمات المفتاحية: التراث السردي، المقامة، المقاربات النقدية، النقد الثقافي، الأنساق الثقافية.

Abstract:

The Arab ancient discursive patrimony has provoked many contemporary approaches of critic that intended to achieve a new and specific understanding of the Arab classical text, as a cultural one, embodying formative dimensions that make a general conception of history, culture and society.

Among these approaches, the Abdelfettah Kilito's view of the Arab classical literature, particularly (El Maqamate) to which he pays a great attention within his critical project that relies on new methodological mechanisms that helped him in dealing with the previously mentioned kind of text to reveal the main characteristics of it, relying on cultural reading.

Key words: Discursive patrimony, El Maqama, critical approaches, cultural critic, cultural formats.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊

مقدمة:

يتألف المشروع النقدي للباحث "عبد الفتاح كيليطو" من مجموعة من الدراسات الجادة و القراءات الأدبية المثمرة التي تنم عن الاطلاع الواسع للتراث الكلاسيكي العربي من جهة، ودقه المعرفة بالفكر الغربي من جهة أخرى، يجمع بين الفكرين – التراث العربي و الفكر الغربي – عن طريق كفاءة تحليلية و عمق معرفي و إتقان منهجي، كل ذلك أفضى إلى مجموعة من الدراسات تجعل القارئ يسبح في فلك الإبداع الذي يغويه ويسحره و يجعله يتشرب من عيون اللذة و المتعة، فدراسات "كيليطو" تتميز بنوع من التفرد في جانب المعالجة النقدية ،لأنه يقرأ ويحلل ويفسر ويكتب، فهو قارئ وكاتب في الوقت نفسه .

يشكل هاجس البحث في التراث السردي العربي القديم (المقامات، أدب الجاحظ، كتاب الليالي، كليلة ودمنة، رسالة الغفران للمعري ...)، وتكييفه والمعطيات المعرفية الحديثة إحدى المهام الرئيسية التي يضطلع بها مشروع "كيليطو"، إنه يسعى إلى إعادة بعث التراث الأدبي و التراث السردي على وجه الخصوص بإعادة التفكير في العلاقة التي تجمعنا

به، ذلك ما طرحه من خلال كتابه "الأدب والغرابة" ضمن سؤال مهم «ما هي علاقتنا بالأدب الكلاسيكي»[1]، حاول الإجابة عن هذا السؤال وفقا لرؤية ممنهجة تسعى للكشف عن جوانب مظلمة و مغيبة و تعمل على إعادة الاعتبار لهذا التراث ونقله من غياهب الغرابة إلى رحاب الألفة، فهو يمثلنا ونمثله في نفس الوقت.

تعتبر "المقامة" أهم الأنماط الحكائية التي اشتغل عليها الناقد "كيليطو" ،حيث خصص لها عدة مؤلفات من بينها (المقامات :السرد والأنساق الثقافية، الغائب:دراسة تحليلية في المقامة الخامسة "الكوفية" للحريري،الأدب والغرابة:في فصلي "الحريري والكتابة الكلاسيكية، الزمخشري والأدب") سعى من خلال هذه الدراسات إلى بناء علاقة جديدة مع هذا النمط الحكائي "المقامة" بوصفها أجود فنون الأدب العربي ومن روائع الفن القصصي، تتميز بخصائص نوعية و تراكيب فنية ولغوية(الصنعة/الزخرفة، التزويق/التنميق)، هذه المظاهر اللغوية الغريبة و الغير المألوفة جعلتها تظل أمدًا طويلا معرضة في متحف يعلوها الغبار شيء فشيئا[2]، وتدخل في نطاق المغيب والمهمش، وتختزل في التصنع والتفخيم، وفي الوظيفة التعليمية والإصلاحية.

من أجل تجاوز هذه النظرة الاختزالية التي تحصر هذا الفن السردي في أبعاد بلاغية ضيقة، نظر الناقد "عبد الفتاح كيليطو" إلى المقامات على أنها تحمل في طياتها أنساق ثقافية مضمرة تفصح عن علاقة هذا النص بالإطار أو السياق الاجتماعي الذي ولدت فيه، هذا ما سنحاول البحث فيه في هذا المقال متسائلين: ما هي الأنساق الثقافية التي كشف عنها "كيليطو" في قراءته للمقامات؟ وما هي الآليات المنهجية والأدوات الإجرائية التي اعتمد عليها؟

2. في ماهية المقامة:

إن البحث في الفضاء الدلالي الذي تحيل إليه المقامات من خلال المراجع و المصادر العديدة و المتعددة التي تؤصل لهذا النوع الأدبي ،يجعلنا نخرج إلى أن المقامة فن من فنون الأدب العربي، ولون من ألوان النثر القصصي، وهو عبارة عن أحاديث تلقى في جماعات على شكل قصص قصيرة، تتميز بالأناقة اللفظية، والأسلوب الساحر، والسجع

الرنان، وتقوم على بنية سردية مهمة تتجلى من خلالها الخصائص الفنية العامة التي تميزها عن غيرها من الأنواع و الأجناس، وقد عرفها "عبد الله إبراهيم" في كتابه "موسوعة السرد العربي" على « أنها نوع من السرد المخادع ،فخلف الجدة الظاهرة، والوقار اللفظي والأسلوبي يقبع هزل عميق ظاهر، أول مظاهر ذلك الهزل قلب الحقائق وتمويهها والتلاعب بالهويات الفردية للشخصيات عبر التنكر الدائم ثم التشفي بالمخادعة»[3].

أما "عبد الفتاح كيليطو" فقد انطلق في تحديده لمفهوم "المقامة" من مبدأ الكل لتحديد الجزء والنظر إلى المقامة كنص منفتح على نصوص أخرى، يستدعي تحديد ماهيتها و الوقوف على أصولها، التعامل مع النصوص السابقة عنها أو المتزامنة معها، وبالتالي دراسة السياق الذي نشأت فيه لتحديد الفوارق و القوائم المشتركة بينها وبين النصوص الموازية لها.إن طرح "كيليطو" المتعلق بمفهوم "المقامة" هو في حد ذاته محاولة لتقديم تصنيف نوعي للمقامة « بوصفها هذه المرة مقامات،ومقامات فقط، لا قصة ولا مسرحية ولا شيء آخر، فبدل البحث عما اشتملت عليه المقامات من مقومات قصصية أو مسرحية، كان كيليطو على النقيض من قراء هذه الفترة في العالم العربي ،يبحث عن البينة السردية الوظائفية الخاصة التي تميز المقامات بوصفها نوعًا أدبيًا سرديًا فريدًا في الأدب العربي القديم»[4].

انطلقت مقاربة كليطو لمفهوم "المقامة" من تجميع الجزئيات الصغيرة التي تتكشف انطلاقا من البنية الفنية الداخلية و الخارجية للمقامة، فالمقامة حسبه «رأت النور في لحظة محددة، ولها مؤلف، ولهذا المؤلف سيرة يمكن الرجوع إليها»[5]، كما أنه يعتبر المقامة شكلا عربيا بحتًا « يندرج ضمن الخطاب المروي بنسبة خيالية»[6]، إنه يجمع الشظايا المبعثرة و السمات المختلفة التي ينبني عليها النص المقامي، كنسبة هذا النص إلى مؤلف معين،الرواية باعتبارها تروى عن طريق راوٍ،وذلك بنسبة خيالية أي أنها مزيج بين الخيال و الواقع ،إنها المظاهر الفنية المميزة التي تتفرد بها المقامة، والتي عمل "كيليطو" على استجلاءها من أجل نزع صفة الغرابة عنها.

أطلق "كيليطو" على المقامات اسم "الظاهرة الجديدة" باعتبار أن هذا الفن الأدبي بالرغم من أن له بعض الجذور و الإرهاصات السابقة التي مهدت الطريق له (مثلا ابن

دريد، ابن فارس، أدب الجاحظ كل هذه الجذور أشار إليها في مؤلفه المقامات)،إلا أن المقامات «انبثقت بشكلها النهائي من رأس مؤلفها »[7] الهمذاني، وذلك استجابة للنسق الثقافي و المعطيات الاجتماعية التي ظهرت فيها و التي كانت سائدة في العصر العباسي، فهي وليدة المرجعيات الواقعية المحيطة بها، وإذا « كان النص الأدبي و الفكري و الجمالي ينطوي على خفايا ،فإنه أيضا ليس بريئا من الارتباط بالمؤسسات الدينية و الثقافية و الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فهناك علائق تربط النص بهذه الينابيع التي تساهم خفية في إنتاجه»[8]، فالنص مهما كان نوعه يحمل ترابطا معينا مع السياق الخارجي الذي ولد فيه ،فهو يتأثر بذلك السياق ويؤثر فيه، لذلك يجب علينا عند قراءة النص أن نراجع السياق الثقافي الذي نشأ فيه، وذلك ما أشار إليه "كيليطو" عندما ألح على أنه «يجب أن نكون متيقظين لبنية النصوص و الشبكة الثقافية التي تمتد فيها»[9] .

3. الوعي بالمنهج/من الحصرية المنهجية إلى التعددية المنهجية:

إن هاجس المنهج العلمي و سلطته التي طبعت العديد من الدراسات النقدية و الأدبية المعاصرة، انفلتت منها قراءة "عبد الفتاح كيليطو" للأدب الكلاسيكي العربي، فالمنهج عنده هو السراج الذي ينير الطريق، فعندما ندرس نصا «فإننا نستعين بمصباح منهجي،كلمة منهج تتضمن العديد من المعاني اللغوية والثقافية :المسلك الواضح، الطريق المستقيم، السبيل البين المستوى(...)هكذا يتحول الدارس إلى مخلوق مشاء يقتحم الليل وفي يده سراج يستنير به»[10]، إن المنهج في نظره يتحدد وفق رؤية ذاتية ووفق الحاجة الملائمة، فلا يسمح له بأن يفرض سلطته الكلية على النص ولا أن يكون موجها قبليا، يوجه مسار الدراسة و يهيمن على النص، بل يقوم الناقد بالإنصات إلى النص وعلى أساسه يكيف المنهج/المناهج وفقا لمعطياته ومتطلباته (النص).

تصب المقاربة المنهجية التي يقوم عليها المشروع النقدي ل"عبد الفتاح كيليطو" في محاولة «الخروج من التيه المعرفي و التخبط المنهجي و الارتهان الثقافي و الحضاري ،سعيا منه نحو تشكيل موقف نقدي جديد ينبثق من فهم عميق لمنطق العصر»[11] وإدراك لمتطلباته – العصر- التي تدعو إلى الانفتاح في شتى المجالات المختلفة و الحد من الدوغمائية والتعصب لمجال واحد وبمنهج واحد، إن الوعي المنهجي عنده قائم على الانفتاح

والتعدد من جهة – تعدد المناهج في دراسة ومعالجة قضية واحدة- وقائم على رؤية معرفية ومنهجية منطقية تنم عن اختيار الأدوات و الآليات التي تخدم النص الذي هو بصدد قراءته من جهة أخرى.

ونحن في صدد البحث في المشروع النقدي لكيليطو، لاحظنا في مجموعة من مؤلفاته (المقامات :السرد والأنساق الثقافية)، (الحكاية والتأويل)،(الأدب والارتياب)،(الغائب)،(الأدب و الغرابة) أنه استعار العديد من آليات المناهج الغربية المختلفة كالبنيوية، السيميائية، التفكيكية، المنهج التاريخي، الشكلانية، التأويلية وانفتح على فكر العديد من النقاد الغربيين أمثال فلاديمير بروب (Vladimir Propp)،تودوروف(Tzvetan Todorov)،رولان بارت(Roland Barthes)،جاك دريدا (Jacues Dirrida) وغيرهم.

في كتابه "الأدب و الغرابة دراسة بنيوية في الأدب العربي" أشار إلى المنهج البنيوي،إلا أن الدراسة في هذا المؤلف لا تنتهج جميع مقولات وآليات المنهج البنيوي ،بل تستعير بعضها وبعضا من المنهج التفكيكي، ف"كليطو" عندما يكتب «فهو بعيد كل البعد حتى عن المظاهر الشكلية في المناهج الغربية واصطلاحاته جاهدا أن يصوغ منهجه من قبل الممارسة الذاتية»[12]، إنه يسعى إلى خلق منهج شخصي يقوم على الاستقراء والتحليل والتفسير و الحفر والتأويل استنادا على مجموعة من الآليات الإجرائية و الأدوات المعرفية المستقاة من المناهج الغربية الحديثة، والتي تتكيف ومعطيات النصوص القديمة ولا تخضعها لنفوذها وسلطتها ،وذلك إيمانا منه أن للثقافة والأدب العربي القديم خصوصية وتقاليد، يجب التعامل معها وفق ما تقتضيه هذه الخصوصية وما تسمح به «فالمهم أن نحذر و نحتاط حتى لا نحكم على نصوص كلاسيكية بمعايير عصرية»[13].

إضافة إلى هذه المناهج النقدية الحديثة استفاد أيضا الناقد من طروحات "النقد الثقافي cultural criticism "، كممارسة تطبيقية تهتم بالبحث عما وراء النص والكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة والمتوارية في عباءة الجمالي «فالنقد الثقافي هو مهمة مترابطة متعددة ،وبمقدوره أن يشمل نظرية الأدب والجمال والنقد وأيضا التفكير الفلسفي وتحليل الوسائط والنقد الثقافي الشعبي وبمقدوره أيضا أن يفسر نظريات

ومجالات علم العلامات ونظرية التحليل النفسي والنظرية الماركسية والاجتماعية والانتربولوجية ودراسات الاتصال وبحث

في وسائل الإعلام والوسائل الأخرى المتنوعة التي تميز المجتمع والثقافة المعاصرة وحتى غير المعاصرة»[14]،فقد وسّع "آرثر أيزابرجر" في تعريفه هذا دائرة النقد الثقافي ليشمل العديد من المجالات الإنسانية والقيم الحضارية والفكرية والمنجزات الأدبية الحاملة لأنساق اجتماعية، ثقافية سياسية، دينية ولكل ما هو مهمل ومهمش، النقد الثقافي يشمل أيضا جميع النظريات النقدية المعاصرة وغير المعاصرة التي تبحث في الخطابات التي يتجلى فيها صوت الثقافة بشكل نسقي مضمر ومخاتل، و«النقد الثقافي في أبسط مفهوماته ليس بحثًا أو تنقيبًا في الثقافة إنما هو بحث في أنساقها المضمرة وفي مشكلاتها المركبة والمعقدة وبهذا فهو نشاط إنساني يحاول دراسة الممارسات الثقافية في أوجهها الاجتماعية والذاتية، بل تموضعاتها كافة بما في ذلك تموضعها النصوصي وهنا يختلف النقد الثقافي عن النقد الأدبي، فالأدوات المنهجية للنقد الأدبي تبحث في بنية النص وفيما هو (بلاغي/جمالي) أما النقد الثقافي فيبحث في الأنساق المضمرة للخطاب ويتعامل مع النص بوصفه حادثة ثقافية »[15].

حمل لواء النقد الثقافي في العالم العربي الناقد العراقي"عبد الله الغذامي" وذلك في كتابه "النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية"ومؤلفه المشترك مع "عبد النبي اصطيف" "نقد أدبي أم نقد ثقافي"، وذلك تأثرا بنظيره الأمريكي "فنيست ليتش " الذي أدرج لأول مرة مصطلح "النقد الثقافي" وأسسَ لكيفيات تطبيقه على النصوص،وعلى هذا الأساس استلهم الغذامي مشروعه في النقد الثقافي وحاول تطبيقه على النص الشعري العربي القديم،معتمدا آليات إجرائية جديدة ،تتمثل في مقترحه بإضافة مفهوم "النسق Système" كعنصر سابع إلى عناصر الرسالة الأدبية التي طرحها "رومان جاكبسون" ،ثم البحث في القيمة الثقافية للمجاز، التورية الثقافية، الدلالة النسقية ثم المؤلف المزدوج، هذه هي الآليات التي اعتمدها في تحليله الثقافي من أجل الكشف عن الأنساق الثقافية المتوارية، وهو يعرف النقد الثقافي قائلا:«هو خطاب ما بعد ثقافي يسعى إلى مقاربة النصوص مقاربة منفتحة على السياقات المتنوعة، وهذا يقدم إمكانية إعادة

قراءة النصوص التراثية قراءة منفتحة على الأنساق المختلفة التي تسهم في توجيه الذائقة القرائية، هذه الأنساق التي وجدت عبر عمليات من التراكم المعرفي والأيديولوجي حتى صارت عناصر تتلبس الخطاب وتوجهه ثقافيا وأيديولوجيا»[16].

تقوم الممارسة التطبيقية للنقد الثقافي إذن على البحث عن"الأنساق الثقافية" والكشف عنها، ذلك ما عمل عليه الناقد "كيليطو" في قراءته للمقامات، إذ يعتبر من أوائل الدارسين العرب الذين بلوروا مفهوم النسق الثقافي،وذلك في دراسة "المقامات السرد والأنساق الثقافية التي أنجزها سنة 1982"، معتبرا الأنساق الثقافية نوعا من المؤسسات التي تقوم على قاعدة اجتماعية، يقول:«نعني بالنسق الثقافي بكل بساطة مواضعة (اجتماعية،دينية، أخلاقية، إستتيقية) تفرضها في لحظة معينة من تطورها الوضعية الاجتماعية والتي يقبلها ضمنيا المؤلف أو جمهوره»[17] فهو يرى أن أي نص أو أي إبداع إلا ويحمل أنساقا معينة تنبثق من نسق عام وهو النسق الاجتماعي «فلا يمكن اعتبار أي نص مغلقا أو متوحدا أو مصوغا من كتلة واحدة ،إنه منفتح على نصوص أخرى، ومعرفيات أخرى، يدمجها في بنيته وتمنحه مظهرا مختلطا ومتجزءا»[18]، من هنا طرح "كيليطو" مفهوم "النص الثقافي" الذي ينفتح على نصوص أخرى ومرجعيات مختلفة يدمجها في بنيته كأنساق ثقافية ،واعتبر المقامة نصا ثقافيا يخضع لأبعاد نسقية كما يخضع لأبعاد جمالية، فالنص/المقامة ليس متجلى أدبي فحسب بل يجب أن ينظر إليه بوصفه حادثة ثقافية [19]،تترجم بعض أساليب الحياة المنتهكة من طرف السلطة أو الثقافة الرسمية، وذلك عبر الأنساق الثقافة المضمرة التي تحمل صيغ الرفض والمقاومة لتتجلى في شكل أنساق متضادة (المركز/الهامش،الفساد/النقاء،المسجد/الحانة،الجنون/العقل) إذ «تأتي القمة النسقية مع (المقامات) وهي أبرز وأخطر ما قدمته الثقافة العربية كعلامة صارخة على فعل النسق،حيث تتجاوز العيوب النسقية وتتكثف في نص واحد، فالبلاغة اللفظية المتنازلة عن أية قيمة منطقية، وغير المعنية بسؤال العقل والفكر،مع حبكة الكذب المتعمد من أجل التسول الذي أصبح مهنة أدبية تكتسب قبولا ثقافيا وتحولت إلى مادة أساسية في التربية الذوقية والثقافية، وتتضافر الحبكات الثلاثة الكذب/البلاغة/والشحاذة لتكون قيما في الخطاب الثقافي»[20]، إذن المقامة قمة في الأنساق

المخاتلة استطاع "كيليطو" أن يكشف عنها بذكائه عن طريق تجاوز البنيات السطحية والمعاني الظاهرة وصولا إلى البنيات العميقة ،حيث الأنساق المضمرة .

4.المقامة والأنساق الثقافية:

اعتمد "كيليطو" في تأويله للمقامات منهجية دقيقة، يتم من خلالها الانتقال من البنيات السطحية وصولا إلى البنيات العميقة والتوغل فيها من أجل الكشف عن الأنساق المضمرة، ثم الربط بين هذه البنيات عن طريق النسقية العامة المشتركة بينهما وهي البنية السردية الخاصة للمقامات.وقد كشف عن الأنساق الجمالية من خلال البحث في البنيات السطحية للمقامة، درس فيها مظاهر الترابط والتماسك والتواشج والاتساق بين عناصرها[21]،والصور البلاغية (التشبيهات ،الاستعارات والكنايات)[22]، وكشف أيضا عن البنية المكانية والزمانية للمقامة ثم ربطها ب«الفضاء والزمان الثقافيين»[23]،كما قام بدراسة صفات الشخصيات الواردة في المقامات (أبو الفتح الاسكندري وعيسى بن هشام، ابي زيد السروجي، الحارث بن همام)، وعمل على كشف هوية الشخصيات ومساهمتها في تكوين المشهد السردي على المستوى السطحي،ثم ربطها بالأنساق الثقافية التي ولدت فيها وتتحرك في مجالها، فقد قيل أنه على القارئ أن يتدخل برصيده الثقافي تصوراته القبلية ليقدم صورة مغايرة عما يراه الآخرون عن الشخصية الحكائية، وهذا ما عبر عنه فيليب هامون "ph.hamon" عندما رأى بأن الشخصية في الحكي هي تركيب جديد يقوم بها القارئ أكثر مما يقوم به النص[24]، فقد كشف "كيليطو" في دراسته "الأدب والغرابة"في الفصل الموسوم"الحريري والكتابة الكلاسيكية" عن الشخصيات الفردية "أبا زيد السروجي والحارث بن همام" التي تشكل«أنماطا إنسانية عامة»[25] فمثلا "الحارث بن همام" اسم لا نستطيع أن نتصور اسما أعم منه، إنه مأخوذ من حديث نبوي معروف "كلكم حارث وكلكم همام" فهو اسم يمكن أن يطلق على أي إنسان، أما الاسم الثاني فإنه يشمل على "زيد وعمر" اسمان كثيرا ما نجدهما في النحو والبلاغة إلى حد أنهما كمرادفين لكلمة "فلان" أو العبارة "إنسان كسائر الناس"[26]، إن التعمق في تحليل الشخصية عن طرق الاسم الذي أطلق عليها،جعل الناقد يربطها بشخصيات تاريخية تعمم على النمط الإنساني بصفة عامة، فعندما يتم التلميح أو الاستشهاد باسم معين مثلا "لقمان" كدال يدل على وصف مدلول (أي شخصية معينة)،يحيل مباشرة لعلاقة تجمع بينهما وهي "الحكمة" ،فاسم

"لقمان" (وهو اسم ديني تاريخي ورد في سورة لقمان في القرآن الكريم) عندما يطلق على شخصية من شخصيات الهمذاني أو الحريري فإن الجامع بين(الشخصية ولقمان) هو امتلاك نفس النسق الثقافي هي "الحكمة" باعتبار أن «خصائص الشخصيات صادرة عن "حقل ثقافي" معين »[27].

من أجل الكشف عن الأنساق الثقافية المتوارية يواصل "كيليطو" الحفر في البنية العميقة للمقامات، إذ أن هذه الأنساق تعتبر كإستراتيجية مضادة لمواجهة عمليات الإسكات التي تفرضها القوة والسلطة والمركز على الهامش[28]، هذه الأنساق تفضح "المسكوت عنه le non dit" وتبحث عما هو ممنوع الخوض أو الكلام فيه ،عما هو مغيب ومهمش ،والمسكوت عنه يعني«عدم الظهور على السطح،على مستوى العبارة»[29]، إنه المعنى الغائب أو المعنى المؤجل الذي يأتي ضمنيا عن طريق الفضاءات البيضاء أو الفجوات، أو ما يعرف "بمتاهات القول"[*] عند كيليطو .

كشف "كليطو" من خلال قراءته الثقافية للمقامات، عن أنساق ضمنية متوارية في المتن الحكائي لها، ونحن بدورنا حاولنا الربط بين تلك الأنساق ومواضيعها وسياقاتها التي طرحت فيها، لنخرج بنتيجة أن الأنساق عنده تنقسم إلى أنساق عامة تندرج تحتها أو تتفرع عنها أنساق فرعية، هذه الأنساق العامة هي :

1- المركز /الهامش: تتفرع إلى نسقين هما: - المحيط/المركز

- «معالم الضياء/عوالم الليل»[30]

2-الفساد/النقاء: تتفرع إلى نسقين هما: - المقدس/المدنس

- الجنون/العقل

- **جدلية المركزوالهامش:**

من أكثر المفاهيم الدالة التي يقوم عليها النقد الثقافي جدلية المركز/الهامش، حيث تعتبر هذه الجدلية من أهم الاستراتيجيات التي يتخذها التحليل الثقافي من أجل فهم الظواهر و العلاقات الإنسانية/الثقافية/الأدبية...، في هذا النسق الثقافي العام كشف "كيليطو" عن مركزية الشعر الذي يعتبر سجل العرب وديوانهم، وهامشية السرد/النثر الذي «يعني التشتت والتبعثر»[31]، إنه كلام لا يخضع لقوانين السلطة المهيمنة، وينسج مسار سردي مناقض لتمثلات السلطة التي تسعى إلى فرض أنساق ثقافية مماثلة للقوة والسلطة والمركز والاستبداد على الآخر.

إن المنهجية التي اعتمدها للكشف عن المركز /الهامش في المقامات، كانت عن طريق تمثله للانتهاكات التي تحدث على مستوى العلاقات(علاقات السرد/المقامات بالأجناس و الأنواع الأخرى)والممارسات (مختلف الممارسات الاجتماعية التي تفضح مركزية السلطة وهامشية الفئة الاجتماعية في العصر العباسي)، وكتدعيم لكيفيات اشتغال هذا النسق العام كشف "كيليطو" عن النسق الفرعي «المحيط/المركز»[32]، إنه النسق الذي تغيرت فيه الموازين وأصبح الهامش أو المحيط هو المركز ،والمركز هو الهامش والمحيط «أين تضفى القيمة على مرتبة وضيعة ويحط من قيمة المراتب المألوفة، تنتقل الدلالة المرتبطة تقليديا بالمركز إلى الهامش»[33]، حيث كسب ذلك المحيط أو الهامش نوعا من القبول الاجتماعي على الرغم من أنه يتنافى مع الأسس والقواعد الاجتماعية لذلك العصر،وهذا يتجلى في المقامات من خلال موضوع هام هو"الكدية" ،إنه نسق مضاد ومخاتل « يندمج بخطاب الموعظة، المتسول مثل الواعظ، يستحضر الأفق الديني وينطق بما ينبغي فعله(...) المتسول مرسل وظيفته زعزعة المستمعين بالمنطق الذي يحكم العالم»[34]، إن الراوي في مقامات الهمذاني الذي يسرد قصص "المكدي" يستعمل منطق التأثير بعامل الدين ثم زرع الشك بطريقة متخفية تجعل المستمع يعيد التفكير فيما تفرضه أنساق الإسكات والصمت، محاولا بذلك تثبيت قيم جديدة كانت هامشية في المجتمع منافية لما رسمته السلطة/المركز.

للتعمق أكثر في جدلية المركز/الهامش بحث "كيليطو" في نسق آخر وهو "معالم الضياء/عوالم الليل" حيث كشف عن دلالات الأنساق الثقافية لموضوعة الشمس/النهار التي تمثل معالم الضياء، والقمر/الليل التي تمثل عولم الليل. ففي قراءته للمقامة

الخامسة للحريري(الكوفية) في كتاب "الغائب" افتتح الدراسة ب« تبدأ المقامة الخامسة الحريرية بذكر الليل وتنتهي بذكر النهار»[35] الناقد في هذا التحليل ينبه قارئ المقامات بأن الزمن الذي تمتد فيه هذه المقامات زمنا ليس عاديا مرتبطا بالسمر والسهر الذي تحلو فيه الحكايات ويحلو الاستماع إليها، إن هذا الزمن محمل بأبعاد نسقية ثقافية متخفية، هذا الزمن مرتبط بالخداع و التخفي « المقامة تروي خداعا يستمر طوال الليل، ولا ينكشف إلا عند الصباح،الخداع موصول بالليل، بالقمر،أما الصدق موصول بالنهار بالشمس»[36]، تتمثل علاقة الصدق بالنهار بارتباطهما بالمركز إنه نسق الظهور و التجلي والاعتراف والواقع، بينما تتمثل علاقة الخداع بالليل بارتباطهما بالهامش إنه نسق التخفي والانجلاء والتهميش و الحلم، هكذا ارتبطت المقامة بالليل و الخفاء و الخداع، ذلك من أجل الانفلات من رقابة السلطة/المركز وقيودها، متخذة من عوالم الضياء ملكية مشروعة بعدما كانت مغتصبة، وعلى هذا أظهر "كيليطو" شبكة من العلاقات تسبح في فلك التناقض والارتياب، علاقات تولدت انطلاقا من نسقي الشمس/القمر، فتولد «ما هو متأصل(نور الشمس)/ما هو سطحي (نور القمر)، الملكية المشروعة/الملكية المغتصبة، الحقيقة/الوهم، الاكتفاء/السطو، الظهور/الاختفاء، الحياة/الموت »[37]، إن تأويل الناقد للمقامة الخامسة وربطها بالشمس والقمر،فتح لنا دلالات متشعبة لا نهائية،ومسالك للمعنى ملونة بحمولة فكرية وثقافية.

-الفساد/النقاء:

تتجلى جدلية الفساد/النقاء كنسق عام في مقامات الهمذاني – كنص تأسيسي للمقامات بصفة أخرى – كشف عنه "كيليطو" عن طريق الحفر في هذه النصوص (المقامات) التي تصور مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية في العصر العباسي، وتكشف عن مختلف التجاوزات التي تنقل الفرد من مرتبة النقاء إلى منزلة الفساد، تصف عصر انحطاط القيم وانهيار السقوف الأخلاقية.فالعصر العباسي يُوصف بعصر المتناقضات الذي «ظهر فيه التصوف والزهد إلى جانب الخلاعة والمجون والترف الفاحش إلى جانب الفقر المقدع لأن الضد يُظهرُ الضد»[38] إنه عصر النقاء والفساد في نفس الوقت ،الذي انعكس مباشرة في شخصيات الهمذاني التي مثل بها كيليطو لهذا التناقض، إذ أنها

لا تستقر على حالة تنتقل بين عالم الوعظ والزهد وبين عالم الاحتيال والبخل، بين عالم الأخلاق واللاأخلاق إنها مفارقة تصف الجو الذي يتخبط فيه المجتمع في ذلك العصر، « فلم تكن دار الإسلام عالما منسجما تندفق منه الفضائل، إنما هو يمور بالتناقضات الثقافية والطبقية والعرقية، وأبو الفتح الإسكندري ومن بعده السروجي يرتسمان كعلامة ثقافية دالة على التنازع بين مستويات متناقضة من القيم الاجتماعية، فهما منفيان ثقافيان في دار الاسلام ولا وسيلة لهما لكسب العيش سوى التنكر»[39].

إذن في ظل هذا النسق الثقافي العام السائد في ذلك العصر، بحث "كيليطو" عن أنساق أخرى فرعية هي" المقدّس/المدنس"، "العقل/الجنون " هي أنساق تمثل للنسق الثقافي العام وتدعمه، صور من خلالها مظاهر القيم والأخلاق الزائفة و المتقلبة، ومظاهر الاستعلاء مما هو منبوذ ومحرم في المجتمع، والاعتراف بالمجنون والحط من قيمة العاقل.

صور في نسق المقدّس/المدنس مظهرا من مظاهر الانتهاك التي يتعدى فيه على المقدّس، وذلك في المقامة "الخمرية" من خلال شخصية "ابي الفتح الاسكندري" الذي ينتقل بين فضاء ديني مقدّس وهو المسجد، وبين فضاء مدنس وهو الحانة، يسعى فيها إلى انتحال شخصية الإمام كتمثيل رمزي للنسق الديني السائد لكسب القبول الاجتماعي، لكنه في الوقت نفسه يكسر العرف والقيم والشعائر كإمام يقصد الحانة لشرب الخمر واللهو فيها، إنه قمة تدهور القيم أن تجمع الشخصية بين المسجد والحانة، وتمثل في نفس الوقت للواعظ والمجان*، إنه تمثيل للفساد من أعلى الهرم "المركز" إلى أسفله ،فهذا التناقض الحاصل في أسفل الهرم "الهامش" صداه ولد من أعلى الهرم "السلطة" وهو ما أشار إليه "كيليطو" عندما تحدث عن الخرق الأخطر «فقواعد الخطاب تدعو إلى الانتهاك العام للمحرمات ،وذلك هو الخرق الأخطر لأن الخطاب هو الناطق و المنظم للأنساق التي تسير الجماعة، غير أنه بالقدر الذي يؤشر الخرق أيضا إلى ما تم خرقه»[40] أي أن ذلك الخرق يدل على ما تم خرقه على مستوى المركز أو السلطة.

في نسق فرعي آخر "العقل/الجنون" كشف "كيليطو"عن مجموعة المتناقضات التي تسود في مجتمع العصر العباسي، والتي ترفع من راية الجنون وتحط من قيمة العقل، « فلا تنفك المقامات عن رفع راية الجنون، كثيرة هي الفقرات التي تحط من العقل وتتغنى بمنافع

السخف و الحمق والجنون »[41]، فالمقامات خطاب صادر من فئة مهمشة في المجتمع ،تتخذه كإستراتيجية مضادة تسعى من خلاله إلى كسر القيم والانحراف عن المعايير القائمة التي رسمتها السلطة/المركز، إنها ترفع من قيمة المهمش/المجنون في المجتمع، وتحط من قيمة العقل/المركز.

5.الخاتمة

وعلى هذا يمكننا القول أن الناقد "عبد الفتاح كيليطو" يعتبر من النقاد المعاصرين الذين قدموا قراءة جديدة للمقامات تتعدى الوظيفة التعليمية والجمالية والجانب الفني لها، إن قراءته تقوم على الحفر في أعماق النص المقامي من أجل الكشف عن الأنساق الثقافية المتوارية في عباءة الجمالي، متخذا في ذلك ترسانة من الآليات المنهجية والأدوات الاجرائية التي تتكيف ومعطيات النص المقامي، مبتغيا وراء ذلك الكشف عن "نص ثقافي" بامتياز يمثل أرقى تجليات السرد العربي القديم.

*** *** ***

1- عبد الفتاح كيليطو، الأدب و الغرابة(دراسة بنيوية في الأدب العربي)، دار توبقال للنشر و التوزيع،ط8، الدار البيضاء، المغرب، 2011،ص47.

2- عبد الفتاح كيليطو، المقامات :السرد والأنساق الثقافية، تر:عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر،الدار البيضاء،ط2، المغرب،2001،ص08.

3- عبد الله ابراهيم موسوعة السرد العربي،مج1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر،ط1، بيروت،2008،ص 312.

4- نادر كاظم،المقامات والتلقي"بحث في انماط التلقي لمقامات الهمذاني في النقد العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات و النشر،ط1، بيروت،2003،ص393.

5- عبد الفتاح كيليطو ،المقامات السرد و النساق الثقافية،ص05.

6- المرجع نفسه،ص34.

7-المرجع نفسه، ص90.

8-سمير الخليل، النقد الثقافي من النص الأدبي إلى الخطاب، دار الجواهري للنشر،ط1، بيروت،2012،ص49.

9- المرجع السابق،ص104.

10- عبد الفتاح كيليطو، الحكاية التأويل(دراسة في السرد العربي)، دار توبقال للنشر،ط1، الدار البيضاء، المغرب، ص 09.

11- شرف الدين شناف ،العقل النقدي و خطاب الأنساق (دراسة حفرية تأويلية)، جدارا للكتاب العالمي للنشر و التوزيع،ط1،الأردن،2020،ص47.

12- عبد الله أبو هيف،النقد الأدبي العربي الجديد (في القصة والرواية والسرد)، منشورات اتحاد كتاب العرب،www,awu,dam,com،دب،2000،ص532.

13-عبد الفتاح كيليطو،الحكاية والتأويل ،ص69-70.

14-أرثر أيز ابزجر،النقد الثقافي،تر:وفاء إبراهيم ،المجلس الأعلى للثقافة،ط1،القاهرة ،2003،ص 30-31.

15-سمير الخليل، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، دار الكتب العلمية،دط، بيروت،دت،ص 303.

16-عبد الله الغذامي،النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي،ط3، الدار البيضاء، المغرب،2005،ص81.

17-عبد الفتاح كيليطو،المقامات السرد والأنساق الثقافية،ص08.

18-المرجع نفسه، ن ص.

19- ينظر:حفناوي بعلي ،مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، منشورات الاختلاف،ط1، الجزائر،2007،ص51.

20- عبد الله الغذامي،النقد الثقافي قراءة في الانساق الثقافية العربية،ص110.

21-ينظر:عبد الفتاح كيليطو،المقامات،ص111-115.

22-ينظر:المرجع نفسه،ص77-79.

23- المرجع نفسه،ص19

24-ينظر:أيمن بكر،السرد في مقامات الهمذاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،دط، مصر،1998،ص52.

25- عبد الفتاح كيليطو،الأدب والغرابة ،ص78.

26- ينظر:المرجع نفسه، ن ص.

27-نفس المرجع ،ن ص،

28-ينظر:محمد بوعزة، سرديات ثقافية من سياسات الهوية الى سياسات الاختلاف، منشورات الاختلاف،ط1،الجزائر،2014،ص39-40.

29- مجموعة من المؤلفين،نظرية الأدب (القراءة ،الفهم،التأويل)،تر:أحمد أبو حسن، مكتبة دار الأمان للنشر والتوزيع،ط1،الرباط،المغرب،2004،ص30.

*-اكتشفنا أن كيليطو يقصد بمتاهات القول الفضاءات البيضاء أو الفراغات من خلال أدب أبي العلاء المعري(شعره ورسالة الغفران)حيث وصف كتاباته بالمتاهات نظرا لغياب المعنى وإخفائه «فكل معانيه مبينة على الغموض و الابهام » ص50 من كتاب ابي العلاء المعري أو متاهات القول ،«وهي الكتابة التي تستدعي قراءات متعددة ويشر القارىء في متاهات متشعبة» أنظر: عبد الفتاح كيليطو،أبي العلاء المعري أو متاهات القول ، دارتوبقال للنشر،ط1،الدار البيضاء ،2000 ،غلاف الكتاب .

30- يوسف عليمات، جماليات التحليل الثقافي،الشعر الجاهلي أنموذجا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،ط1،بيروت،2004،ص211.

31-عبد الفتاح كيليطو،المقامات،ص80.

32- المرجع نفسه،ص 43.

33-المرجع نفسه،50.

34- المرجع نفسه،ص 100.

35- عبد الفتاح كيليطو،الغائب (دراسة في مقامة الحريري)، دار توبقال للنشر،الدار البيضاء،ط3،المغرب،07،2007.

36- نفس المرجع، ن ص .

37- نفس المرجع، ص 09-10.

38- عبد الهادي حرب، موسوعة أدب المحتالين، دار التلوين للتأليف والنشر، دط،دمشق، سوريا، 2008، ص61.

39- عبد الله ابراهيم، موسوعة السرد العربي ،مج1،ص318.

*- المجان من المجون .

40- عبد الفتاح كيليطو، المقامات السرد والانساق الثقافية،ص56.

41- المرجع نفسه، ص38.